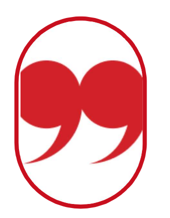
ابحث هنا

لبنان

مجتمع



أحمد محسن

السبت 14 تموز 2012

الخندق الغميق: التحولات الديموغرافيّة الكبرى [2/ 3]

يتذكرون الشحرورة في الخندق. في الستينيات كانت تتغندر هناك. شقراء وجميلة. تمشي بدلع المطمئنّة وتضحك كثيراً. صباح التي كانت تأتي إلى محل «عيسى النحاس للبربارة». أبو حسين حراجلي يعرفها في صباها. شاهدها في زمن آخر. يدلّ محل البربارة إلى طبيعة السكان المحيطين به أولاً قبل أن يدلّ إلى نفسه. كانت «البربارة» طقساً يُمارس. اعتاد الناس اخفاء وجوههم لأجل المرح. وصباح كانت حدثاً بالنسبة للرجل الذي عمل موزعاً للصحف منذ ستين عاماً. إن لم تخنه ذاكرته، كان يجهد في توزيع الصحف على قرابة 400 أو 500 بائع يوميّاً.

يستنتج أن وجود البائعين يستلزم وجود قرّاء. المحطة قرب جريدة الحياة ـ سابقاً ـ في الخندق. القرّاء ينفلشون بين زقاق البلاط والبسطة ويصلون إلى الأشرفيّة والمتن الشمالي، إلى بيروت بأسرها. كانت الصحف مصريّة غالباً. يذكر جريدة «الأحرار» لمؤسسها يوسف كميل شمعون. لا أثر لهذه اليوم ولا لشمعون إلا نادراً. «الديار» كانت تبيع كثيراً أيضاً. يوضح المتعهد هنا: «كانت صحيفة محترمة». ثم جاء نسيب المتني وصحيفته «التلغراف». العثور على الأخيرة بعد العاشرة صباحاً كان ضربة حظ. كان الحبر خبزاً. اليوم لا يجد أبو حسين أكثر من 50 بائعاً. والأنكى، أنه لا بائعون إلا في «بيروت الغربية». منذ انطلاقة الحرب الإعلاميّة انقسم الموزعون بين «غربيين» و«شرقيين»، على مقاس بيروت غربية وأخرى شرقية. وأيضاً، على مقاس برلين. بمعنى آخر، يكون لبنانيّاً صافيّاً، ظهر موزعون مسلمون وموزعون مسيحيون. وتالياً، متعهدو توزيع على مقاس الطوائف. يتأفف أبو حسين لأنه «ممنوع من التوزيع في المناطق الشرقيّة من العاصمة». حتى اليوم ما زال قرار «العزل» الكتائبي سارياً. معالم الفصل بين شطري العاصمة تلمع هنا. كان الخندق الغميق طرفاً عظيماً من «جدار بيروت».

الانكسار المسيحي الأول

في الواقع، قاوم الخندق التحول إلى جدار لكنه وقع في شرك الديموغرافيا. الحياة الرخوة بدأت بالتصدع في 1958. حظيت «المقاومة الشعبيّة» بحضور قوي في الخندق الغميق، رغم أن الخندق لم يكن «رأس الحربة» في الصراع ضد «قوات كميل شمعون». قوات كميل شمعون كانت الجيش اللبناني. لكن يحلو لأبو حسين حراجلي أن يسمّي الأمور على هذا النحو. يضيف إلى «قوات شمعون» طرفاً آخر: «الكتائب». يتذكر رجالاً قاتلوا بشراسة. هم عمليّاً قوام «المقاومة الشعبية». شاكر دكروب. حسن تميم. مصطفى الصباح. و«قبضاي» الخندق، أحمد الأرناؤوط. بالمعنى الشعبي العام كان هؤلاء «زلم صائب بيك». رجال صائب سلام الأقوياء الذين لا يهابون مدرعات الجيش. ذهبوا إلى ساحة البرج والمعرض وقاتلوا هناك. وفي الفترة عينها ظهر رجل اسمه محمود الشامي. يحظى بسمعة طيبة بين السكان الباقين من زمن آل سلام. لقد نفذ عمليّة نوعية في حينها. أحرق الـABC بقنابل المولوتوف. ملامح التخريب هنا بدأت ولم يكن احتواؤها حاسماً. انهار الخندق في لحظة الصفر.

يلتقط الحاج أبو حسين من أطراف ذاكرته حكايات «المقاومة الشعبيّة». لا يروقه أن يتحدث عنها إذ إنها «أحداث وانتهت». أسست لشرخ عميق لم يردم بعد. ساد انطباع عام آنذاك لا يختلف في فحواه عن «أزمة الثقة» بين اللبنانيين أيام الانتداب. بيروت المنشطرة بين «العروبة» و«أعدائها». رأى أبو حسين بنفسه بيروت «تهتف لعبد الناصر». والمقصود الرئيس المصري السابق جمال عبد الناصر. بعد ستين عاماً لن يقبل المساومة على هويّة المدينة. ومثله كان النازحون القدامى. نتج من ذلك ما نتج. في تلك الفترة بدء الرحيل المسيحي من الخندق. بلا صخب هاجر روم أورثوذكس وموارنة وسريان. عائلات بأسرها لم تكن تعرف أن انسحابها من الخندق الغميق سيكون نهائياً. ظنوا أن العودة قريبة ولم يستقروا في الأشرفيّة المقابلة. كانت محطة. صارت دائمة. ابتعدوا شارعاً ولكنها كانت مسافة كافية لإعلان الانكسار المسيحي الأول في العاصمة. والحديث هنا «في السياسة». في المجتمع، يعرفهم أبو حسين «واحداً واحداً». غريغوريان الطبيب الأرمني ما زال هنا وأم وليد أيضاً.

ينتظرهم ليسلّم عليهم. يرى بعضهم «يمرّون» لتفقد أملاك قديمة، تزامناً مع نوبته الصباحيّة في محله... «أهلنا وحبايبنا وأوادم والله يلعن الحرب». هم مثله. أهل المنطقة وأبناؤها. ينتخب في الجنوب ـ مثل معظم السكان ـ ولكنه «ابن الخندق». ولده المكان. الفرق بينه وبينهم أنهم غادروا باكراً وهو غادر متأخراً. غادروا بلمح البصر حتى أن أبو حسين وجيرانه لا يذكرون مراحل لهجرة المسيحيين البطيئة في 1958 والحاسمة في 1975. خلال الأخيرة «استلزم الأمر شهراً واحداً». تقريباً غادر الجميع. أما مغادرته فحكاية أخرى تتضح فصولها لاحقاً. يستنكر التفوه بكلمة «طائفيّة».. سُم الزعران. جيّشونا ضد بعضنا. كان التفاهم ممكناً. «الله يلعن اللي كان السبب». أثبت لنا أنّ أهل الخندق لم يكونوا طائفيين يا أبو حسين. ولو؟ يقول... «بالتماني والخمسين نفسها...»، جاء وزير الداخليّة وقتذاك ريمون إده وأزال المتاريس من البسطة. رافقه قبضايات الخندق. «بالرواق». كل شيء صار «بالرواق». إده المحبوب في الخندق مات.

المدّ الشيعي والجزر الكاثوليكي

برأي كثيرين، التحول الأعمق، كان في منتصف الستينيات. ظهر الشيخ محمد عيّاد. وفوق ميتم السريان ظهرت حسينيّة ومسجد الإمام علي. صار للشيعة معلم في الخندق الغميق. التفّوا حوله. يُحكى أن الشيخ جمع تكاليف البناء من طبقات شيعيّة متعددة اقتصاديّاً. التجار بالدرجة الأولى أسهموا في البناء. فقد صار لهم حضور في المنطقة وصارت المنطقة سوقاً تجارية. والآخرون من المتبرعين كانوا عمالاً. كادحون فعلاً ولا يمكن أن تنطبق الكلمة على أحد أكثر منهم. عتالون وماسحو أحذية وباعة جوالون. عمال البلد الذين لا يتعبون حصلوا أخيراً على مرقد في الخندق: مسجد الإمام علي بن أبي طالب. وبرأي كثيرين في المنطقة، فإن هذا كان أبرز التحولات الديموغرافيّة في المنطقة. وثمة قصة يتداولها أهل الخندق تقول إن الشيخ عياد غضب مرة في وجه صائب سلام (أو رشيد كرامي). واحد من قدامى الشارع يؤكدها لكنه نسي تفاصيلها. يتذكر فحواها... «دافع الشيخ عياد عن سكان المنطقة آنذاك». ولذلك، كان، وما زال، يحظى بشعبية واحترام بين السكان، رغم أن عائلته اليوم غير مرتبطة مباشرةً بالتيارين السياسيين الشيعيين القويين في العاصمة. السكان اليوم ينتمون إلى هذين الفريقين لكنهم يقدرون تاريخ الشيخ عياد ولذلك يحترمون نجله الشيخ مرتضى.

قبل ذلك كانت غالبية السكان من القضاة ومن كافة الطوائف. رجل آخر يتذكر هو مهدي النعنوع. يسكن المنطقة منذ عقود. يسرد أسماء الشوارع كمن يسرد أسماء أبنائه. يعرف قصصهم. هذا البيت احتله فلان وهذا البيت كان فيه فلان. يغريه حي النبعة أكثر من غيره. لأنه الحيّ الذي كان راقياً. حاول أن يقنع صاحب بناية «عكر وتابت» ببيعها فرفض الأخير مراراً. البناية المتشظية «على الزاوية تمام». يقولها بلهجة البيروتي الشغوف بمدينته. خمس دقائق أو أقل وتتخطى الجسر. تصبح في الوسط. في قلعة سوليدير المسيّجة بفقر الخندق. هنا الخندق المتروك وهناك ما كان يعرف سابقاً بالبلد. وعن زاروب الحراميّة يعتقد النعنوع أن اسمه لا يعبر فعلاً عن واقعه. كان زاروباً مخيفاً في زمن الميليشيات. البعض كان يبول فيه لأنه مستور بالأشجار، والبعض الآخر كان يخشى المرور فيه لأنه أشبه بمأوى أشباح. وكان أقرب إلى «التماس» مع «المناطق الأخرى». هذا الزاروب كناية عن مفترق يحاذي الجسر العملاق المؤدي إلى الأشرفيّة، ويصل سالكه إلى قلب الخندق باختصار. بعد الزاروب، الى اليسار، أبرز معالم الخندق: بناية «عكر وتابت». في مقابلها، بعد أمتار صعوداً، كنيسة السريان. ما تبقى من كنيسة السريان.

شبابيك كنيسة السريان

أنشئت في عهد السعيد الذكر البطريرك أغناطيوس جرجس شلحت 1878. الصليب الذي ينظر إلى أعلى يحرس الجملة الآنفة. حفروها على رأس المبنى الشاحب. من بوابته السوداء الموصدة كان يتدفق المصلون. لم يضعوا لافتة تقول «ممنوع الدخول» ولكن أحداً لن يفكر في ذلك بسهولة. الجنازير تقبض بقسوة على طرفي البوابة. يمكن للفضولي إذا كان نحيفاً أن يعبر داخل البوابة. القضبان الحديدية التي تتألف منها واسعة إلى حدٍ تتسلل منه خفاياها. لم تتسع بفعل الزمن بل وجدت كذلك في الأساس. الفضولي سيدخل. كنيسة مار جرجس للسريان الكاثوليك مغرية ويزيد من الإغراء حدة الشبه بينها وبين المباني الطائشة. تُركت المباني مرتين لكن الكنيسة تُركت مرة واحدة. فقد انسحب السكان بعد الحرب من بيوتهم وسرعان ما عوض مهجرو النبعة وبرج حمود الفراغ. حتى بدايات الألفية الجديدة أقام هؤلاء صداقة مع بيوت ليست لهم ولا تشبه حزام البؤس في النبعة. انسحبوا منها «بعدما جاء الحريري» فتُركت مرة ثانية. كان من المستحيل أن يصادق المهجرون الكنيسة.

الآن يسرح فيها عشب طويل يُحدث الدهشة. في صحنها سراخس لم تشذب بل تستكين بدلع تحت الشرفات الأنيقة. هناك نوافذ أيضاً لكنها لا تطل على شيء غير ماض سحيق. الألوان التي فيها نجت من النهب أما الجرس فخُطف على عجل. كنيسة السريان قبو مضيء. ماضٍ جميل. وفي غرف جانبيّة داخلها فوضى وبقايا مصلين ومحتلين. صليب مكسور برفق. وزجاجة ويسكي شربها أحد ما سراً. طمرها بأوراق الكنيسة وطيّر الهواء الأطراف فقفز الغطاء إلى السطح. الزجاجة مغبرة وحيطان الكنيسة هي الأخرى. سُدت فيها المداخل تجنباً لمزيد من الفوضى. قرب هذه البوابة دخنوا سجائر بلا جدوى. والجرس الذي كان يُقرع كل احد قبل 1975 صار أخرس. لا أجراس تُقرع في الخندق الغميق.
في النهار يكون الضوء حقيقيّاً. يداعب الهواء المنحسر في الحصن حشائش نامية فيحدث حفيفاً بطيئاً. كأنه يعزف لحناً قديماً يحاصر آثار الذين تضرعوا هنا. اعترفوا بخطاياهم قبل أن يغادروا. خطايا صغرى قياساً بما حلّ بالجدران التي تئن. يذكر رجل من آل خريس وجود سقف قرميدي مرتب. طار السقف بقذيفة أو سرقوه. لا يستطيع أن يجزم. يميل إلى الفرضيّة الثانية ولكنه لا يستطيع أن يجزم. عادت الكنيسة إلى أصحابها «رمزيّاً» في 2004 في حفلٍ حضره وزير المهجرين آنذاك طلال إرسلان. عادت الكنيسة واجتمعت مع الحرب في باحة واحدة. فعودة السلام لا تعني بالضرورة مغادرة الحرب من الشبابيك المثقوبة. شبابيك فاتنة ومرتفعة تدل على رهافة الأسلاف. وبرهافة مماثلة، جاء بوهيميون إلى المذبح ونقشوا عليه رسومات ضد الحرب. آلهة رومان تلتصق بالمذبح. وبقايا شموع ذائبة. الكنيسة تعرف المتاريس والمهجرين. راقبت كل شيء من الاتجاهين: «مونو» غرباً، بعد بشارة الخوري، والأحياء البيروتيّة التي سيطر عليها اليسار وحركة أمل لاحقاً. صراعات ضارية حدثت. الصعود إلى الشرفات مستحيل. وفي الخارج الجميع يمرّ بقرب الكنيسة غير مبالٍ. غادر المهجرون في الألفين لكنهم لم يغادروا بخفي حنين. لقد أخذوا تاريخ الآخرين.

(الاثنين الحلقة الثالثة والأخيرة، معقل أعداء سوليدير)

فرمان عبد العزيز خان

في «خطبة العودة»، عام 2004، والتي كانت عبارة عن موعظة بطريرك السريان الأنطاكي مار اغناطيوس بطرس الثامن عبد الأحد، التي ألقاها خلال «صلاة الشكر»، تحدث البطريرك السرياني عن تاريخ «كنيسة السريان». وأكد أن أرشيف كنيسته يشير إلى أن بداية التوافد السرياني الكاثوليكي على مدينة بيروت، كانت في 1810. وهذا تاريخ كثير، خصوصاً أنه يعود إلى فترة كانت السلطنة العثمانية في «عز» سيطرتها على المدينة. ولما زاد عدد السريان، وفقاً لأغناطيوس «التمسوا من المثلث الرحمات البطريرك اغناطيوس جرجس شلحت ان يبني لهم كنيسة، واختاروا لها الحي السكني الاكثر اكتظاظاً، وهو حي الخندق الغميق في منطقة الباشورة». والمقصود الحي الأكثر اكتظاظاً بهم، أي السريان. وفي حفل «طنان» حضره وزير المهجرين آنذاك، طلال ارسلان، لفت البطريرك إلى أن «المثلث الرحمات لمس استعداداً في صفوف أبناء الطائفة لمده بالعون، وضع الحجر الاساس الاول في كنيسة مار جرجس في 25 اذار 1878». وكما كانت تجري الأمور حينها، تطلب الأمر «فرماناً» من السلطان العثماني، الذي كان السلطان عبد العزيز خان، فأصدره الأخير عام 1880، سامحاً ببناء الكنيسة. إذاً، هذه البقايا الجميلة، تعود إلى 1883. ففي ذلك العام، انتهى العمل في الكنيسة ودشنت في احتفال شعبي كان حاشداً. كان حيّاً مميزاً في بيروت، يقطنه المحامون، وأهل القضاء، إضافة إلى «طبقة وسطى» مسيحيّة. وفي هذا الصدد، يتذكر رجل من أصول جنوبيّة، من آل خريس، أن الأجراس كانت تقرع في الحيّ، والمصلين كانوا هادئين، حتى في «عز الانتداب». يعتقد أن عدد المسلمين في بدايات القرن التاسع عشر، خصوصاً في العقد الأول، لم يتعد سكنة بضعة بيوت... و«الذي لا يعرف المنطقة كيف كانت وقتها لن يصدق اليوم أنها نفسها».

1958: بداية الهجرة

يتذكر متعهدو بيع الصحف في الخندق الغميق، المنطقة الأشهر بوجود هذه الصحف، أن صحيفة «التلغراف» كانت الأقوى في المنطقة. بعضهم يلفظها هكذا: «الطلّ غراف». كان الصحافي المغتال نسيب المتني يحظى بشعبية واسعة في صفوف القرّاء البيروتيين، ويرى هؤلاء أن اغتياله كان له دور مباشر في اشعال الأحداث داخل أحياء المدينة، التي عرفت لاحقاً بـ«ثورة 1958». ومن هنا، لا يرون أن انخراط أهل الخندق في «الثورة» كان غريباً، بل كان طبيعيّاً. في تلك الفترة كانت «العلاقة مع صائب سلام في بيروت ممتازة»، تزامناً مع صعود نجم زعيم «الحركة الوطنيّة». كمال جنبلاط.
في أيّار 1958 شكلت المعارضة فصائل مسلحة من أهل بيروت سمّتها «المقاومة الشعبية». وقعت صدامات مسلحة بينها وبين الجيش اللبناني في معظم مناطق العاصمة. كانت حرباً تحضيريّة. تولى قيادة «المقاومة» أحمد الأرناؤوط في الخندق، بتكليف من مصباح سلام، شقيق الرئيس صائب سلام، والمكلّف منه قيادة الفصائل. كانوا يطلقون على مصباح لقب «الماريشال». الأرناؤوط كان واحداً من قبضايات بيروت. يتذكر أبو حسن من الخندق أن شقيقه كان من الرجال الذين اقتحموا منزل رئيس الوزراء في حينها، سامي الصلح، لأنه كان متحالفاً مع شمعون، الذي «كان حليف الأميركان»، وكيف أن الصلح «فرّ من المنزل عندما هاجمه سكان البسطة والخندق وزقاق البلاط». كان أبو حسن صغيراً حين قصفت «المقاومة الشعبية» منزل الصلح. في المحصلة، الخندق شارك في الثورة. كان محطة للقصف على «اليمين اللبناني». ومُذاك، بدأت الهجرة المسيحيّة من الحيّ البيروتي العريق.

مقالات ذات صلة

لبنان

العدو يغير على منطقة الدبشة في يحمر الشقيف ويوقع 3 شهداء

الاخبار 2025-03-27

علوم وتكنولوجيا

عام التحولات الكبرى في استهلاك الطاقة

الأخبار 2025-03-25

لبنان

الجيش يعثر على 3 منصات صواريخ شمال نهر الليطاني

الأخبار 2025-03-22

لبنان

إسرائيل تزعم إطلاق 3 صواريخ من لبنان باتجاه المطلة وتتوعّد بالرد

الأخبار 2025-03-22

الأكثر قراءة

ثقافة

السعودية «تُبرّئ» فضل شاكر... المسامح كريم!

زينة حداد 18.04.2025

لبنان

قائد الجيش في مجلس الوزراء: «حزب الله» متعاون جداً والعقبة هي إسرائيل

الأخبار 18.04.2025

عرب

ازدحام في فروع الهجرة والجوازات وطرق التهريب

مروة جردي 18.04.2025

لبنان

28.1 مليار دولار احتياطي الذهب يساوي 123% من الناتج المحلّي

الأخبار 18.04.2025

لبنان

قاسم: سنواجه من يعمل على نزع سلاحنا

الأخبار 18.04.2025

لبنان

سرقة 180 لوحة مميّزة



